الدولة الإدريسية الهاشمية ودورها السياسي والحضاري في المغرب في عهد الإمامين إدريس الأول وإدريس الثاني «١٧٢-١٨٨هـ/٧٨٩-٨٠٤م»

صالح محمد فياض أبو دياك
قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة اليرموك

تاريخ تقديم البحث ١٩٩٤/٦/٧ تاريخ قبول البحث ١٩٩٥/٤/٣

ABSTRACT

This article covers the rise of the Idrisid State in reaction to the Abbasid Caliphate in Baghdad with the political and military initiative and endeavors of Idris I and his son Idris II. They carved out a state in a remote part of the far Maghrib without tribal affiliations and wealth to rely on but by endearing their house to the Maghribeans. Their deeds closely resemble those of Abd Al-Rahman Al-Amawi, who relied on his own endeavor, more than any other factor, in founding the Umayyad State of Andalusia.

The article discusses the extensive efforts undertaken by the first two Idrisid rulers to spread Islam and the Arabic Language in the area with much ingenuity, if not unorthodoxy, in religious principles. They were able to restorethe peace and tranquility in the area, which had been politically as well as economically devastated as a consequence of the civil strife and uprisings caused by the Kharijiites. But Affection and harmony replaced feud under the first two Idrisid rulers.

They hoped and endeavored to expand their rule to the rest of the Maghrib. But the Abbasids, by way of assisting the Aghlabites in Qayrawan and the Rustamites in the central Maghrib, and the Andalusian Umayyads worked hard to restrain the Idrisids. They contrived against Idris II to distract him from realizing his plans. When he vecome aware of the extent of the intrigurs against him, even amon his own retinue, he resigned himsrlf to the task of reorganizing fis own principality and reforming its institutions.

His efforts became manifest in the rise of the city of Fez. It developed into a lasting lighthouse of learning and a substantial commercial center, liberally embracing diverse groups, Muslim and non-Muslim, from among the Maghribeans, Andalusians, Iranians, Iraqians and Jews. Thereafter, Fez became a navel in the greater Maghrib, and a fountain of cultural legacy for the peoples of the Maghrib and Andalusin.

الملخص

يتضمن البحث نشأة الدولة الإدريسية التي كان إنشاؤها رد فعل ضد الخلافة العباسية في بغداد، مع إبراز القدرة السياسية والعسكرية للإمامين إدريس الأول وابنه ادريس الثاني اللذين أنشأ الدولة في مكان ناء من المغرب الأقصى، دون أن يكون لديهم عصبية قبلية أو مال يعتمدون عليه في تكون دولتهم، اللهم إلا حب المغاربة لآل البيت، وهما بعملهما أشبه بعمل عبدالرحمن الداخل الأموي الذي أقام دولة الأمويين بالأندلس معتمداً في قيامها على جهد شخصي أكثر من أي شيء آخر.

ويتضمن البحث الجهود المبذولة للإمامين في نشر الإسلام واللغة العربية في منطقة كثر فيها البدع والانحرافات الدينية، عملا ما في وسعهما على استتباب الأمن فيها، بعد أن خربتها الفتن والثورات التي قام بها الخوارج مما أنضب مواردها الاقتصادية، فاستبدلت الدولة الإدريسية المحبة بالخصام، وعملت ما في وسعها على توسيع رقعتها في البلاد المغربية، أملاً في بسط سلطانها على المغرب كله، لكن الأمويين بالأندلس والعباسيين عن طريق الأغالبة في القيروان والرستميين بالمغرب الأوسط تكالبوا عليها وعملوا على حصرها، وأخذوا يحيكون المؤامرات ضد إدريس الثاني ليشغلوه عن تحقيق مشاريعه، ولما أدرك كثرة المؤامرات التي وصلت إلى أهل بطانته كف عن مشاريعه ورضي بحدود إمارته، وعمل على تنظيمها وإقامة المؤسسات فيها التي تجلت بوضوح بإقامة مدينة فاس التي كانت وما زالت مناراً من المنارات العلمية، ومركزاً تجارياً كبيراً ضمت في رحابها مختلف الفئات الإسلامية وغير الإسلامية، من أندلسيين، ومغاربة، وفرس، وعراقيين، ويهود، وأصبحت فاس قطباً في المغرب الكبير، ومصدر تراث حضاري للشعبين المغربي والأندلسي.

قبل الحديث عن هذه الدولة أنوه بالذكر إلى من سبقني إلى الكتابة عنها، فقد تناولها سعد زغلول في كتابه (تاريخ المغرب العربي-الجزء الثاني) كوحدة تاريخية واحدة منذ تكوين الدولة الى زوالها، وتناولها إسماعيل العربي، ومحمود إسماعيل من ضمن ما تناولا في حديثهما عن تاريخ المغرب، الأول في كتابه(دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة) والثاني كتابه (الادارسة) وكان تناولهما بشكل عام، وتطرق كل من حسين مؤنس إلى ذكرها في كتابه (معالم تاريخ المغرب والأندلس) بشكل مقتضب، وأحمد مختار العبادي (في تاريخ المغرب والأندلس) بالكيفية نفسها. وهأنذا أدلي بدلوي، فكتبت عنها في بداية تأسيسها، وعنفوان قوتها أيام المؤسسين لها، إدريس الأول، وإدريس الثاني.

وكان من دوافع كتابتي عنها، عظم ما أنجزته في المجال العقدي والمجال الحضاري، ففي المجال الأول قامت الدولة بعمل عسكري غايته توسيع رقعة نفوذها، نتج عنه تثبيت دعائم الإسلام في المناطق التي لم يثبت فيها، أو لم يدخلها.

وفي المجال الحضاري، قامت ببناء مدينة فاس وتوسيعها حتى أصبحت منارة علمية تلقي بإشعاعها العلمي على المناطق المجاورة لها والبعيدة عنها، وعملت على نشر التعريب بين القبائل البربرية التي انضوت تحت سلطانها، وعلى صهر العناصر البشرية المتعددة من عرب وفرس وبربر في بوتقة الإسلام، ونشّطت وسائل التنمية الزراعية والصناعية، وادخلت نظام الري الصناعي في سقي المزروعات الذي لم يكن معروفاً من قبل.

وعملت على بناء المساجد والتوسع العُمراني في المناطق التابعة لها، كل هذا دفعني الى الكتابة عنها خاصة وأن تكوينها في هذه البلاد لم يسبقه دعوة، وإنما تكونت فجاءَة ودون تمهيد، ولعل حب المغاربة لآل البيت ساعد على ذلك، لا سيما وأنهم خاضوا حروباً عدة مع الأمويين والعباسيين كان منها معركة (فخ)[١] قرب مكة سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م بينهم وبين العباسيين، وانتصر العباسيون عليهم وتفرّق من بقي منهم في الأمصار، وكان من بينهم إدريس بن عبدالله أخو محمد النفس الزكية الذي فرّ إلى المغرب مع مولاه[٢] راشد الذي نزل به على قبيلته اوربة في مدينة وليلى[٣] (Valibolous). فتلقاهما زعيمها اسحق بن محمد بن عبدالحميد الأوربي، وتُجمع المصادر على ذلك، فابن الأبّار في كتابه (الحلة السيراء)، والجزنائي في كتابه (جنى زهرة الآس)، وابن عذاري في كتابه (البيان المغرب..) بجزأيه، والبكري في كتابه (المغرب..) وغيرهم متفقون على ما ذكر، ويشيرون إلى الحيلة التي قُتل بها إدريس الأول من قبل حريز[٤] الذي أرسله الخليفة العباسي هارون الرشيد.

تكوين الدولة: عندما خرج محمد النفس الزكية بالحجاز على المنصور سانده الإمامان أبو حنيفة ومالك، وأفتيا بأن إمامته أصح من إمامة أبي جعفر المنصور، واخذ مالك يردد عدم جواز بيعة المكره التي يأخذ بها العباسيون، وبسببها ناله أذىً كثير(٥).

وعندما وقعت معركة (فخ) وفر إدريس أخو محمد إلى الأرض المغربية التي وصل اليها سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م(٦) أيام إمارة يزيد بن حاتم على إفريقية، وهشام بن عبدالملك على الأندلس مع خادمه راشد الذي قام بخدمته ورعايته، وتولى أمر إخفائه؛ بأن جعله خادمه وهو سيده، وهذه مأثرة منه حتى لا يقع سيده في الخطر، وتمكنا من الوصول إلى تلمسان، ثم تابعا سيرهما بعد استراحتهما بها أياماً(٧) معدودات، خوفاً من مطاردة العباسيين لهما، وتابعا سيرهما إلى أن نزلا في مدينة طنجة(٨) ومكثا فيها ما يقارب السنتين، وغادراها عندما لم يجدا فيها ضالتهما، فتوجه به راشد سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م إلى حيث تسكن قبيلته في مدينة وليلي، فنزلا على شيخها الأوربي وكان على مذهب المعتزلة(٩) فوافقه على ذلك، وبعد مدة من الزمن كشف له عن نفسه، ففرحوا بقدومه(١٠) ودخلت القبائل في طاعته، وكان منها؛ زناتة، زواغة، زواوة، لماية، سدراتة، غياثة، ونفزة، ومكناسة، وغمارة، وقدموه عليهم وكانوا له طائعين، ولم يتلقب بالإمام إلا بعد زمن، وإن دلّ هذا على شيء، فإنما يدل على بُعد نظره، والدليل على ذلك، أنه لما دخل تلمسان، بنى فيها مسجداً ونقش على محرابه:- "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أمر به إدريس بن عبدالله"(١١) دون أن يذكر لقب الإمام. ومهما يكن من أمرٍ فقد تمكن من تكوين دولته في مكان ناءٍ في المغرب الاقصى، حيث الجبال العالية والكثافة السكانية الكبيرة، والبعد المكاني عن دار الخلافة، ومحبة المغاربة لآل البيت(١٢)، كل هذا ساعده على تكوين دولته ذات الصبغة الملكية الوراثية البعيدة عن التشيع، والتي كانت نظرتها تتفق مع نظرة الفرقة الزيدية بالإمامة بإجازة تعيين المفضول مع وجود الفاضل، وهذا ما يتماشى مع نظرة أهل السنة، ومن الأدلة على ذلك، تعيينه لعدد من الكتاب والموظفين، ممن يعدّون من أعلام أهل السنة، منهم؛ الكاتب عامر بن محمد القيسي الذي سمع عن مالك وسفيان الثوري وروى عنهما كثيراً، ونعتها بعض الكتاب بـ(الدولة الهاشمية)(١٣) وحكامها يلقبون بالفواطم نسبة إلى فاطمة الزهراء(١٤)، لكنها لا تنتمي إلى أي فرقة من فرق التشيع.

وبدأ إدريس بتكوين جيشه من القبائل التي بايعته، ولما تمّ له ذلك، توجه بجيوشه إلى مناطق ذات أهمية إستراتيجية وإقتصادية، ففي الجنوب توجهت الجيوش إلى سهول تامسنا(١٥) الغنية بإنتاجها الزراعي والحيواني فضلاً عن أهميتها التجارية؛ اذ يتفرع منها

طريق تجاري هو طريق تارودانت نحو السودان، وفتح شاله[١٦] وسائر الحصون التي حولها، وتابع سيره في نفس الاتجاه؛ ففتح ولادة، ومديونة، وفزارة، وتادلا[١٧] واستولى على حصونها، وواصل زحفه إلى أن وصل إلى ماسة فضمها إليه، واستبدل الإسلام فيها بالنصرانية واليهودية والمجوسية[١٨]، وأصبح الدين الإسلامي السائد فيها، ولم يبق فيها مستضعفين، ثم واصل سيره نحو تازا حيث مناجم الذهب[١٩]، وبهذا يكون قد حقق هدفين، أولهما:- قام بتوسيع رقعة دولته ونشر الإسلام في المناطق التي لم ينتشر فيها بعد، أو ان وجوده ضعيف فيها. وثانيهما:- إشغال القبائل في الحروب الخارجية وتوفير الموارد المالية والبشرية، وبهذا كفل سيادته عليها.

علاقات إدريس الأول مع الدول المجاورة

١- العربية:

اتسمت علاقة إدريس الأول بعد بيعته بالدول المجاورة، بالحرب المباشرة مع بعضها، وبالتهديد مع بعضها الآخر.

ففي سنة ١٧٣هـ/٧٨٩م خرج من مدينة وليلي قاصداً تلمسان ذات الأهمية التجارية التي تقع على طرق التجارة بين الشرق والغرب.

وكان من أبرز قبائلها، مغراوة، وبني يفرن، وكانت السيادة ذلك الوقت لمغراوة ولزعيمها محمد بن خزر بن صولات، الذي خرج لملاقاة إدريس خارج المدينة معلناً الولاء والطاعة[٢٠]، ودخلت معه القبائل الضارية حول المدينة، وهذا يدل على حسن استقباله والرضى بقدومه، وبهذا الفتح توفرت لديه قوة بشرية جديدة تمثلت بقبيلتي مغراوة وبني يفرن الزناتيين مستعيناً بهما في الحد من نفوذ اوربة[٢١].

ودخل المدينة وبنى فيها مسجداً سنة ١٧٤هـ/٧٩٠م كما جاء في النقش الذي على المحراب[٢٢]، ومعنى هذا أنه بقي في المدينة إلى سنة ١٧٤هـ وبعدها عاد إلى وليلي، وكان إختياره لها يتناسب مع مخططه الحربي، حيث ادرك أهميتها وكثافة سكانها، ولا سيما أنه استراح فيها أياماً في أثناء قدومه من المشرق متوجهاً الى المغرب، ولعله أراد أن يتخذها نقطة انطلاق ضد دولة الأغالبة الذي أقطعهم هارون الرشيد أرض الزاب سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م

ليتخذها خط دفاع أول لدولته يهددهم فيها، فيما إذا فكروا في محاربته أو التحريض ضده، لذا عمدت دول المنطقة إلى تكوين محاور سياسية ضده، محور عباسي اغلبي ليحول دون توسعه شرقاً، ومحور رستمي برغواطي للحيلولة دون توسعه شمالاً(٢٣).

ب- أساليبه السياسية:

فقد سلك سبل الاتصال مع أهل إفريقية الأغلبية، ومصر العباسية، وإن المراسلات بينهما كانت قائمة، فقد أرسل الإمام إدريس الأول رسالة إلى المصريين يدعوهم لطاعته، جاء فيها:- (بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فالحمد لله رب العالمين لا شريك له الحيٍّ القيُّوم، والسلام على جميع المرسلين، وعلى من تبعهم وآمن بهم أجمعين.

أيها الناس: إن الله بعث نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالنبوة، وخصه بالرسالة وحباه بالوصي، فصدع لأمر الله وأثبت حجته، واظهر دعوته، وإن الله جل ثناؤه-خصنا بولايته. وجعل فينا ميراثه ووعده فينا وعداً سيفي له به، فقبضه إليه محموداً لا حجة على الله ولا على رسوله صلى الله عليه وسلم، فلله الحجة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين، فخلفه الله جل ثناؤه بأحسن الخلافة، غذانا بنعمته صغاراً، وأكرمنا بطاعته كِباراً، وجعل الدعاء إلى العدل القائمين بالقسط المجافين للظلم، ولم نمل -اذا وقع الجور- طرفة عين نصحنا أمتنا والدعاء إلى سبيل ربنا، جل ثناؤه، فكان مما خلفته أمته فينا أن سفكوا دماءنا وانتهكوا حرمتنا، وأيتموا صغيرنا، وقتلوا كبيرنا، واثكلوا نساءنا، وحملونا على الخشب، وتهادوا رؤوسنا على الأطباق فلم نكل ولم نضعف، بل نرى ذلك تحفة من ربنا -جل ثناؤه - وكرامة أكرمنا بها، فمضت بذلك الدهور، واشتملت عليه الأمور، وربي منا عليه الصغير وهرم عليه الكبير..."(٢٤).

ويبدو أنه كان يهدف إلى تأليب المصريين على العباسيين، وإيجاد أنصارٍ له لتكوين دولته فيها متى سنحت له الفرصة والإ لما خصهم بالمراسلة دون سواهم من أبناء المشرق، الذين قاموا بإخفائه وتسهيل السبل له في الهروب عند افتضاح أمره.

أما مراسلته لأهل إفريقية فكان القصد منها، تأليبهم ضد الأغالبة، وإثارة الفتن، ليشغلهم عما يفكرون به من غزوة، ويجعلهم عاجزين أمامه لو فكروا في محاربته والوصول إلى المشرق عن طريقهم، لأنه كان يحث الخطى لذلك، خاصة بعد نشر الإسلام بين القبائل التي كانت على دين النصرانية والمجوسية واليهودية والشرك، وبعد محاربته لقبائل برغواطة الخارجية لما عرف

عنها من الزيغ والإنحراف، والتي اتخذت من بلاد تامسنا موطناً لها.[٢٥]، فاستولى عليها، واصبحت مملكته تشمل المناطق الواقعة ما بين تلمسان ووادي أم الربيع، وعُدَّت هذه المنطقة سياجاً لدولته، مما دفع الى تكوين محاور سياسية ضده لتحول دون توسعه.

ووصلت أخبار انتصاراته إلى الخليفة هارون الرشيد الذي حكم من سنة ١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٨م، فأثارت الرعب في نفسه، وعبَّر لوزيره يحيى البرمكي عن مشاعره بقوله:- " إن إدريس بن عبدالله ولد علي بن أبي طالب وابن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم، قد قوي سلطانه وكثرت جيوشه، وعلا شأنه ... وفتح مدينة تلمسان وهو باب إفريقية، ومن ملك الباب يوشك أن يملك الدار، وقد عزمت أن أبعث له جيشاً عظيماً لقتاله... ثم إني فكرت في بُعد البلاد، وطول المسافة، وتنائي المغرب عن المشرق ولا طاقة لجيوش العراق على الوصول الى السوس من أرض المغرب ..."[٢٦] فأشار عليه وزيره بتدبير الحيلة لاغتياله، فأرسل له الخليفة هارون سليمان بن جرير البجلي الذي اغتاله بواسطة السم في ربيع الأول سنة ١٧٥هـ/٧٩١م خوفاً من أن يستفحل أمره ويستولي على المغرب وإفريقية.

ودفن خارج باب وليلي الذي عاد إليها بعد رجوعه من أخذ تلمسان، وبقي فيها حتى مماته، وما زال قبره مزاراً إلى الآن[٢٧].

من شعره:

أليس أبونا هاشم شدّ أزره — وأوصى بنيه الطعان والضرب
فلسنا نمل الحرب حتى تملنا — ولا نشتكي ما يهول من النّكب[٢٨]

وترك بعد موته جارية اسمها كنزة أهداه إياها عبدالحميد الأوربي حاملاً في السابع من حملها، وعند المخاض ولدت ذكراً شبيهاً بأبيه فسمي بإدريس، وتولى أمره راشد، وحفَّظه القرآن غيباً وعمره ثماني سنوات، وعلمه السنةُ والفقه والشعر وأمثال العرب وحكمها وسير الملوك وسياستها، ودربه على ركوب الخيل والرمي بالسهام ومكائد الحروب، ولما أصبح في الحادية عشرة من عمره، أخذ له مولاه راشد البيعة من سائر القبائل البربرية، فبويع بمسجد وليلي يوم الجمعة في مستهل ربيع الأول سنة ١٨٦هـ/٨٠٢م وألقى خطبته التي من الممكن أن نَعُدُّها بما يسمى الآن بخطاب العرش، وكانت على جانب من البلاغة والرصانة، تثير الدهشة في البيان وفصاحة الألفاظ، وأغلب الظن أنها كُتبت له، وقام بإلقائها، فإنه من غير الممكن أن يكون في هذه الفصاحة وهو في هذه السن.

قال:- " الحمد لله وحده واستغفره، وأستعين به، وأتوكل عليه، وأعوذ بالله من شر نفسي وشر ذي شر، وأشهد أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله إلى الثقلين بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، صلّى الله عليه وعلى آله الذين أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

أيها الناس إنّا قد وُلِّينا هذا الأمر الذي يضاعف للمحسن فيه الأجر، وللمسيء الوزر، ونحن والحمد لله على طريق قصده، فلا تمدوا الأعناق الى غيرنا فإن الذي تطلبونه من إقامة الحق أنما تجدونه عندنا..."[٢٩].

العلاقة الخارجية لإدريس الثاني مع الدول المجاورة:

١- الحربية - حربه للخوارج

قام إدريس الثاني في استكمال مهمة أبيه من قبله في نشر الإسلام بين المصامدة وسكان نفيس وأغمات ١٩٧هـ/٨١٢م، وبوصوله إلى نفيس وضع يده على مناجم الذهب في السودان الذي استعان به على تقوية دولته، ودخلت قبائل المصامدة في طاعته وتحول ولاءها من برغواطة إلى الأدارسة وثبّت معالم الإسلام في تلك الديار بعد أن قضى على الوثنية إلى جانب المسيحية واليهودية، وعاد إلى فاس وبقي فيها حتى سنة ١٩٩هـ/٨١٤م[٣٠] ففي هذه السنة خرج الإمام على رأس جيش كبير إلى تلمسان لمحاربة الصفرية من البربر، وقد أبدى من الشجاعة ما أثار إعجاب رجاله، ويذكر البكري ما قاله داود بن القاسم بن إسحق بن عبدالله ابن جعفر عنه، قال:- " كنت مع إدريس بن إدريس في المغرب، فخرجت معه يوماً إلى قتال الخوارج، فلقيناهم وهم في ثلاثة أضعاف عددنا، فقاتلناهم قتالاً شديداً، فأعجبني إدريس ذلك اليوم، وجعلت أديم النظر إليه، فقال ويحك، لم توالي النظر إليّ؟ قلت: لخصال، أما أولها فإنك تبصق بصاقاً مجتمعاً وأنا أطلب قليل ماء أبلّ به حلقي فلا أجده، قال: ذلك لاجتماع قلبي وذهاب بصاقك لذهاب عقلك، قال: قلت، والثانية: لما أرى من منتك قال إن النبي صلى الله عليه وسلّم صلّى علينا قلت، والثالثة، لما أرى من حركتك وقلة فرارك على الدابة ..."[٣١].

وبالجملة فقد تمكن من تثبيت نفوذه في هذه الناحية، وبقي في مدينة تلمسان[٣٢] ثلاث سنوات ينظم شؤونها ويصلح أسوارها وجامعها الذي بأكدير والذي وضع فيه منبراً كتب إسمه عليه[٣٣]، ويقضي على الخارجين عن طاعته من القبائل الضاربة حولها، قصد تأمين

حدود دولته الشرقية من خطر الرستميين أصحاب تاهرت، وقصّ شوكة قبيلة(نفزة) البربرية التي تُعد من أقوى العصبيات التي تساند إمامة تاهرت وتدافع عنها ولكن الرستميين تصدوا لهذه الغارات، وقاتلوهم بشدة، ولم يتركوا المجال للتغلغل في أراضيهم وأبوا الاندماج بدولة الأدارسة، ولعل هذا هو الذي دفع الأدارسة بأن يحولوا أنظارهم شطر الشمال ويتّجهوا الى المناطق الساحلية بالمغرب الأوسط ووادي شلف، فأنشئوا سوق حمزة (البويره اليوم)، وسوق ابراهيم[٣٤]، وغيرها من الأسواق والمدن بعيدين عن الأراضي الرستمية، دون أن يتعرضوا إلى الأقاليم الداخلية التابعة لإمامة تاهرت، حتى لا يصطدموا بهم، ويظهر من خلال هذا التحول، أن الأدارسة سلكوا مع بني رستم سياسة حُسن الجوار والمسالمة قصد منعهم من الوصول إلى الساحل خوفاً من نشر مبادئهم واتقاء لشرهم. وبهذه السياسة والإجراءات الوقائية التى اتخذها إدريس الثاني لنفسه ودولته، انتظمت له طاعة أهل المغرب الاقصى والجزء الغربي من المغرب الأوسط.

ويشير صاحب الاستقصا إلى نفوذه فيقول:- "... واقتطع المغربين عن دعوة العباسيين من لدن السوس الأقصى إلى وادي شلف"[٣٥].

ب- السياسة - سياسته مع الأغالبة:

كان العداء بين الأدارسة والأغالبة، قدراً محتوماً أملته طبيعة تأسيس كل من الدولتين، فقد أقلق التطور السريع لدولة الأدارسة إبراهيم بن الأغلب صاحب إفريقية الذي حكم البلاد من سنة" ١٨٤-١٩٦هـ/٨٠٠-٨١١م" وأزعجه انتشارها السريع في بلاد المغرب، وكلّف أحد البربر بعد أن اشترى ذمته بالمال باغتيال راشد سنة ١٨٦هـ/٨٠٢م ظناً منه أن مقتله سيؤدي إلى حدوث فتنة في البلاد، ولكن شيئاً من هذا لم يحصل، فسرعان ما عادت الأمور الى مجراها الطبيعي بتعيين وصي جديد بدلاً منه، هو أبو خالد يزيد بن الياس العبدي الذي أخذ له البيعة مرة أخرى من القبائل والأقاليم التي بايعته سنة ١٨٨هـ/٨٠٣م وبهذا فوّت الفرصة على إبن الأغلب الذي لجأ إلى الدس والمكيدة باسلوب آخر، فأخذ يقدح بنسبه ويدعي بأنه إبن راشد، وفي هذا يقول محمد بن السمهري الذي يهجو ولده قاسم:-

قل للزنيم زنيم طنجة عش بها	لا يحسدنك في بلاد حسد
منتك نفسك أن تكون خليفة	هيهات هذا من حديثك بارد

لما رأيتك للأيام مصافياً أيقنت حقاً أن جدك راشد[٣٦]

وفي هذا الصدد يقول إبن خلدون:- "...، ما يتناجى به الطاعنون في نسب إدريس بن إدريس بن عبدالله الإمام بعد أبيه بالمغرب الأقصى ... بالتظنن في الحمل المخلف عن إدريس الأكبر أنه لراشد مولاه، قبّحهم الله ... كلا والله إنما صدرت هذه الكلمات من بني العباس ... الخ[٣٧].

ويبدو أن محمد بن المقاتل العكي قد نسب مقتل راشد إليه، فكذبه إبن الأغلب، وأرسل يخاطب الخليفة هارون الرشيد بقوله:-

ألم ترني اهلكت بالكيد راشد واني باخرى لابن ادريس راصد؟

فتاه أخو عك بمهلك راشد وقد كنت فيه ساهراً وهو راقد

تناوله عزمي على بعد داره بمحتومة يحظى بها من يكابد[٣٨]

ودخل إبراهيم مع إدريس بصراع سلبي طويل، بحيث أصبح يهدد دولته في عقر داره، وقد تمكن بدهائه أن يؤلب عليه أصدقاءه، فاغرى وزيره بهلول بن عبدالواحد المطغري بالمال، إلى جانبٍ حقده على إدريس حينما أجزل العطاء على العرب الوافدين عليه فرحاً بقدومهم لأنه أحسًّ بالوحدة بين البربر، إلى جانب ما أثخنه إدريس من جراح وقتل في قبيلته، كل هذا جعل عبدالواحد يدخل في طاعة بني الأغلب، فأرسل إليه الإمام رسالة تهكمية وفيها بعض الأبيات الشعرية منها:-

أبهلول قد شممت نفسك خطة تبدلت منها ضلة برشاد

أضلك إبراهيم من بعد داره فأصبحت منقاداً لغير قياد

كانك لم تسمع بمكر إبن الأغلب وقد ما رمى بالكيد كل بلاد

ومن دون مامنّتك نفسك خالياً ومنّاك إبراهيم شوك قتاد[٤٩]

وبهذه التدخلات والاستفزازات من قبل بني الاغلب أصبح إدريس الثاني يرتاب منْ بعض أعوانه منهم أبو ليلى إسحق بن محمد بن عبدالحميد الأوربي سنة ١٩٢هـ/٨٠٧م الذي تواطأ مع الأغالبة.

وتشير بعض المصادر إلى أن إبراهيم بن الأغلب قد عزم على قتله فنهاه أصحابه قائلين له:- "اتركه ما تركك" وقد أدرك الإمام إدريس الثاني حجم خطره وإصراره على إثارة الفتن عنده، فبعث إليه برسالة يذكره بقرابته من الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وفي نهايتها أبيات من الشعر:

اذكر إبراهيم حق محمد وعترته، والحق خير مقول

وادعوه للامر الذي فيه رشده وما هو رأيه بجهول

فان آثر الدنيا فإنّ إمامه زلازل يوم للعقاب طويل(٤٠)

فكف عنه، ولكن يبدو أن الأغالبة لم يكونوا جادين في القضاء على الدولة الإدريسية، لأنهم رأوا فيها وسيلة لتثبيت سلطانهم في القيروان يهددون بها خلفاء بني العباس فيما إذا حدث ما يشوب العلاقات بينهما، وظهر جلياً عندما أرسل الخليفة العباسي المأمون للامير أبي العباس ابن إبراهيم بن الأغلب عقب وفاة أخيه أبي العباس عبدالله سنة ٢٠١هـ/٨١٦م، وخلصه أخوه زيادة الله صك التولية في السنة نفسها، الذي بموجبه تولى زيادة الله الأول الإمارة، وبقي مخلصاً لدار الخلافة ببغداد حتى في ظروفها العصيبة، فلم يخرج عن ولائه للمأمون إبان اندلاع فتنة إبراهيم بن المهدي في بغداد، وقدّر له الخليفة اخلاصه فشكره على موقفه بعد انتهاء الفتنة، إلاّ أن علاقة الود ما لبثت أن تعرضت لهزة عنيفة حين حاول المأمون الانتقاص من شأنه والتدخل في شؤونه لكن جهوده لم تكلل بالنجاح، فقد أراد مكافأة عبدالله بن الطاهر- الذي حقق له الظفر على الأمين -فأسند إليه ولاية مصر والمغرب.

وكتب إلى زيادة الله يأمره بالدعوة لعبدالله بن الطاهر على منابر المساجد بإفريقية، وبهذا تفقد إفريقية استقلالها الذاتي وتصبح تابعة لمصر، فرفض زيادة الله طلب الخليفة ولم يفرط بما حافظ عليه والده واخوه.

ويصور إبن الأبَّار غضب زيادة الله حينما وصل اليه رسول الخليفة فيقول:-"... وأمر- زيادة الله - بإدخال الرسول عليه بعد أن تملأ من الشراب، وحلق شعره، ونار عظيمة بين يديه في كوانين، وقد احمرت عيناه، ثم قال: وقد علم أمير المؤمنين طاعتي له، وطاعة آبائي لآبائه، وتقدم سلفي في دعوتهم، ثم يأمرني الآن بالدعاء لعبد خزاعة، هذا والله أمر لا يكون أبداً". وكتب زيادة الله رسالة إلى الخليفة يرفض فيها الأمر، ويخبره بأنه سيدافع عن حقوقه حتى لو أدى الأمر إلى اندلاع الحرب بينهما. وأرفق بالرسالة كيساً به ألفا دينار إدريسية ، لذلك لم

يجد الخليفة بداً من التخلي عما أمر به، متجاهلاً ما ورد برسالة الأمير الأغلبي من خروج عن المألوف في مراسلة الخلفاء ورضي ببقاء الأمور على ما هي عليه بإفريقيا[٤١].

جـ - سياسته مع أمويي الأندلس.

كانت هذه السياسة قائمة على العداء لسببين، الأول أن الأدارسة يمثلون أخطر القوى المغربية على الأندلس، بعد أن توسعوا على حساب جيرانهم الخوارج، وبعد أن أصبح لديهم ثروات اقتصادية هائلة إلى جانب عدد لا بأس به من القبائل، وكان مظهر العداء بينهما شبيه بمظهر العداء مع الأغالبة، فالعلاقة بين فاس وقرطبة اقتصرت على حوك المؤامرات والمكائد والدسائس وتشجيع الأندلسيين على الالتجاء إلى فاس، الأمر الذي دفع الربضيين إلى الالتجاء، عندما تغيّرت الأحوال بين إدريس الثاني وبين الحكم بن هشام الربضي، واستبدلت المحبة٢[٤٤] بالعداوة فلم ينس إدريس الثاني ومن أتى من بعده من الحكام الأدارسة ما فعله الأمويون في علي ونسله، مما كوّن عندهم نظرة سلبية لهم، بالنظرة نفسها التي تكوّنت لديهم عن العباسيين الذين قلبوا لهم ظهر المجن وسلبوهم حقوقهم في الخلافة ومجمل القول أصبحت حدود مملكته تمتد من سلاسل جبال الأطلس الأعلى في جنوب مراكش إلى درعة التي تمثل مناجم الذهب، مما ساعد على تجهيز حملاته ورفع المستوى المعيشي لمواطنيه، وضمن لنفسه نفوذاً يطل على الحدود المغربية الأندلسية تمهيداً للدخول إليها، ولكن المنية عاجلته[٤٣] وحالت دون تحقيق هدفه.

د - بناء المدينة وتخطيطها:

أحسّ إدريس بعد هذه الأحداث والمتغيرات بأنه بحاجة إلى تغيير مدينة وليلي وبناء عاصمة له بدلها، لا سيما أنها منزوية بين الجبال في وسط جموع من البربر، إلى جانب أن العاصمة الجديدة تمثل رمزاً لدولة جديدة في المغرب تجذب الأنظار إليها لا سيما أن الوافدين من العناصر العربية بلغ عددهم خمسمائة فارس من إفريقية والأندلس، من القيسية[٤٤]، والأزد[٤٥]، والخزرج[٤٦]، وبني يحصب[٤٧]، والصدف[٤٨]، وكان قدومهم بداية السيل من الهجرات التي جاءت الى المدينة فيما بعد.

اختلف المؤرخون في عهد من بنيت المدينة، فهناك قول بأن الإمام إدريس الأول بدأها وأتمها ابنه إدريس الثاني وهناك قول بأن إدريس الثاني بدأها وأتمها، ومهما يكن من أمر فإن بناءها قد تم بعد بحث وتجوال عن مكان ملائم، فقد قام إدريس الثاني ومعه عدد من خاصته يبحثون عن موقع مناسب للبناء، فوقع اختيارهم على منطقة بالقرب من جبل زالغ فتبين لهم أنها تتعرض الى سيول تأتي من أعالي الجبال عند سقوط الأمطار، فطلب من وزيره عمير بن مصعب مكاناً فيه كثير من العيون والمروج، وعندما وجدوه أخبروا الإمام بذلك، ولما عاين المكان سأل عن أهله فقيل له أنهم يسمون ببني الخير، فاشترى الأرض منهم وبدأ في البناء، وسميت المدينة عند الانتهاء من بنائها بفاس، ولهذه التسمية روايات تاريخية مختلفة، بعضهم يروي أن الإمام عندما شرع في البناء استخدم فأساً، وبعدها أخذ العمال يطلبونها ليعملوا بها، واكثروا من السؤال عنها فسميت بذلك، ويقال أنهم وجدوا في الأساس فأساً طولها أربعة أشبار وعرضها شبر، فسميت المدينة باسمها، ويقال أنها بنيت على انقاض مدنية قديمة خربت قبل الإسلام تسمى باللسان البربري ساف فحصل لها قلب فاصبح اسمها فاس ومهما يكن من أمر، فان عدوة الأندلسيين كانت أولى الأماكن تأسيساً، وقد تم تأسيسها سنة ١٩٢هـ/٨٠٧م وأما عدوة القرويين فانها أسست في شهر ربيع الأول سنة ١٩٣هـ/٨٠٨[٤٩] واستقر الأمام في المكان المعروف بالقرمدة الذي تسمى فيما بعد بدار القيطون ويعني الخيمة، ثم بنى جامعاً للخطبة متصلاً بمنزله عُرف بمسجد الشرفاء في أثناء ذلك أمر الناس ببناء الدور والغرس، ونادى فيهم منادٍ أن كل من بنى موضعاً واغترسه قبل انجاز السور فهو له هبة، ويبدو أن من بنى شيئاً بعد إنهاء السور إنما يكون باستئجار الأرض وهو سبب الجزاء في بعض نواحيها[٥٠].

ولما فرغ الإمام إدريس من بناء سور المدينتين وجامعي خطبتيهما، أنزل القبائل الوافدة عليه من جزيرة الأندلس بالعدوة الشرقية فسميت بعدوة القرويين. ثم أمرهم بزيادة البناء والغرس فبنى الناس الدور والمساجد والحوانيت، وغرسوا على جانبي الوادي من منبعه بفحص سايس[٥١] إلى مصبه في نهر سبو بالأشجار المختلفة والخضار والبقول، فكثرت خيراتها وازداد عمرانها، وقصدها الناس من كل صوب وحدب وسكنها مختلف رجال المهن[٥٢]، وفي أول جمعة من إتمامها صلّى في مسجدها، بعد أن القى خطبته التي جاء فيها:-

" اللهم إنك تعلم أني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة، ولا سمعة ولا مكابرة، وانما أردت أن تُعبد فيها، ويتلى بها كتابك وتقام حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد صلّى

الله عليه وسلّم ما بقيت الدنيا اللهم وفق سكّانها وقطاّنها للخير واعنهم عليه، واكفهم مئونة أعدائهم، وأدرر عليهم الأرزاق، واغمد عنهم سيف الفتنة والنفاق، إنك على كل شيء قدير[٥٣].

فأمن الناس على دعاءه، ولعل دعائه هذا يماثل دعاء عقبة عندما بنى مدينة القيروان، وأن الله أنعم على المدينتين بالخيرات والبركات.

أما عن تخطيط المدينة:- فقد نزلت القيسية بإزاء الأسوار الجنوبية لعدوة القرويين ما بين باب إفريقية وباب الحديد، ونزل اليحصبيون حذاءهم بإزاء الأسوار المقابلة من الجهة الأخرى، ونزلت قبائل الأزد فيما بينها على طول الأسوار الغربية، أما عن قبائل البربر من صنهاجة[٥٤] ولواته فكان نزولها في مختلف نواحي المدينة.

أما أبواب المدينة فهي كثيرة منها، أبواب عدوة الأندلسيين وهي:- باب الفتوح قبلي، وباب أبي خلوف شرقي، وباب حصن سعدون جوفي، وباب الحوض غربي يقابل باب عدورة القرويين، وباب سليمان مثله، ومن هذين البابين، يخرج أهل العدوة الأندلسية إلى قتال أهل عدوة القرويين عندما يحدث بينهما اختلاف وتجري معارك لا هوادة فيها في مكان يعرف بكدية الفول، وباب الفوارة وبه جامع جميل يحتوي على ست بلاطات.

ولعدوة القرويين من الأبواب ما يلي :-

باب الحصن الجديد قبلي، وباب السلسلة شرقي يخرج منه المرء إلى عدوة الأندلسيين، وباب القناطر شرقي، وباب سياج يحيى بن القاسم جوفي، وباب سوق الأحد غربي.

وامتازت المدينة بكثرة ينابيعها وأرحيتها، وبمرور نهر سبو من وسطها، وبلغ عدد أرحيتها ما يزيد على ثلاثمائة رحى، وقل أن تجد داراً لرجل إلاّ وفيها رحى وبستان[٥٥].

ولديها من الحمّامات الساخنة ما عُدًّ إلى يومنا هذا من أفضل الحمامات للاستشفاء، من أبرزها حمة خولان وفيها يقول الشاعر:-

إذا أزفر الحمّام واشتد   وهاجت لواعيج به حميم[٥٦]

وتحدث عنها كل من الحميري، الجزنائي، المراكشي الذي سماها ببغداد المغرب، وإبن عذاري، ومؤلف مجهول في كتابه الاستبصار، والحموي، وإبن حوقل، ومن المحدثين المستشرقين، تورنو، وليفي، بروفنسال وغيرهما، ومن المؤرخين العرب، سعد زغلول، إسماعيل العربي، وعبدالعزيزسالم وغيرهم.

شهد حكم إدريس الثاني حدثاً هاماً وهو لجوء المنفيين الربضيين الأندلسيين على أثر فشل الثورة التي قاموا بها ضد الاميرالحكم بن هشام المعروف بالربضي أبو العاصي[٥٧] وكان الحدث في أواخر حكمه يوم الأربعاء ١٣ رمضان سنة ٢٠١هـ/٨١٦م وكان معظمهم من المولدين ممن أرادوا أن يكون لهم صوت مسموع في المجتمع الأندلسي لشعورهم بالغبن بسبب وضعهم الاجتماعي والسياسي، واستقرّ هؤلاء الوافدون في أول الأمر بين القبائل المغربية في جبال الريف الغربية القريبة من البحر الأبيض المتوسط، وصادف هذا الحدث تعمير المدينة الجديدة- العالية، ولهذا رحب بهم الإمام وأسكنهم في مدينة العالية - فاس، وكان مقرهم في الأندلس قبل مجيئهم إلى فاس في حي يقال له الربض ويعني المنطقة الجنوبية المواجهة للمدينة، وتمتد جنوباًإلى بلدة شقندة (Secunda)، والملاحظ أن معظمهم من ذوي المهن القلمية واليدوية، فمنهم الطلبة والعلماء، والفقهاء، وأرباب الحرف اليدوية، وإلى اليوم يسمى مكانهم بالتسمية نفسها (Arrabal).

ولقد كان لاختلاط الفقهاء بهم أثر كبير في اشتعال الفتنة، والسبب المباشر لها يعود إلى أن جندياً من حرس الأمير الحكم أراد إصلاح سيفه عند أحد الحدادين، وحدث شجار بينهما أدى إلى قتل الحداد، فقام أهل الربض وقتلوا الجندي وتوجهوا نحو الأمير، فما كان منه إلاّ أن أمر بقتلهم وحرق متاجرهم ومنازلهم وأجلاهم عن البلاد[٥٨]، وقد تم كل هذا وعبروا العدوة وسكنوا في المدينة، فكان لفقهائهم وعلمائهم وأدبائهم وصنّاعهم ومزارعيهم والفنّانين منهم ممن امتصوا القيم الحضارية في المشرق والاندلس، ومثلوا البؤرة الثقافية في المغرب الأقصى، وعملوا على نشر اللغة العربية مما يسّر فهم النصوص والأحكام الشرعية، ويبدو أن العنصر المعماري القيرواني قد أثر في بادىء الأمر بفاس، ثم عادت وتأثرت بالفن المعماري الأندلسي وما يحويه من عناصر الحضارة الأندلسية الممثلة في جامع الشرفاء وجامع الأندلسيين الى جانب المساكن البيضاء ذات الحدائق الداخلية في أحواشها[٥٩].

ونتيجة لما حوته المدينة من عناصر بشرية مختلفة من بربر وعرب ويهود ومولدين، وجد فيها تنافس في مختلف الميادين، مما أدى إلى تحسين مستوى المعيشة والالتقاء الذاتي لأهلها، وفي هذا يقول عنها عبدالواحد المراكشي في كتابه (المعجب):- ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج إلى شيء يجلب اليها من غيرها إلاّ ما كان من العطر الهندي سوى مدينة فاس ... الخ[٦٠].

ويبدو أن الخليفة الحكم قد دفعه خوفه من الأدارسة إلى عقد هدنة مع الأمبراطور الكارولنجي (شارلمان) ملك الفرنجة دامت حتى سنة ١٩٩هـ/٨١٤م حتى يتمكن من الحد من

الانتشار العسكري والمذهبي العلوي في بلاد المغرب، ويعمل على منعه من العبور إلى أرض الأندلس، هذا من جهة، ومن جهة أخرى قام بمحاولة لتهدئة الوضع في الداخل، فكتب كتاباً إلى جميع عماله في إمارته يبين فيه أسباب ثورة أهل الربض ويشرح لهم ظروفها، طالباً منهم قراءتها، والرسالة طويلة تقع في ثلاثين سطراً(٦١).

وعقد عدد من الكتاب مقارنة بين أساليب الحياة ووسائل العيش بين العدوتين، فهم يرون أن عدوة القرويين أكثر بساتين وأشجاراً ومياهاً وعيوناً من عدوة الاندلسيين، وكلتا العدوتين خصبة، ويقال إن رجال عدوة الأندلس أشجع وانجد من رجال عدوة القرويين، ونساؤهم أجمل من نساء القرويين، ورجال عدوة القرويين أجمل من رجال عدوة الأندلسيين، ويقال إن في عدوة الأندلسيين تفاحاً حلواً يعرف بالأطرابلسي جليل حسن الطعم والرائحة يصلح بها ولا يصلح في عدوة القرويين، وكذلك في عدوة القرويين أترج جليل يجود بها ولا يجود بعدوة الأندلس، وكذلك سميد عدوة الأندلس، أطيب من سميد عدوة القرويين(٦٢).

وهكذا شهدت المدينتان وهما في بداية عهدهما إقبال الناس ممن تمرسوا في الحياة الحضرية ومعهم تقنياتهم ووسائل عيشهم المفضلة على البربر الذين هم أقل مستوىً في العيش والخبرة، وبفضلهم اكتسبت المدينة موهبة صناعية وفنية لأنّ من يأتي إليها من المدن المجاورة هم النخبة في بلادهم، وهذا الأمر ساعد الدولة الأدريسية على تثبيت دعائم الإسلام في الشمال الغربي من البلاد.

وهذا المختصر لا يفي المدينة حقها من البحث، لكننا لا نود الإطالة مرجئين الأمر إلى بحث مستقل عنها.

التنظيمات:-

قام إدريس الأول بتعيين أقاربه على الولايات المغربية التي خضعت لسلطانه، فعيّن أخاه سليمان بن عبدالله أميراً على تلمسان بالمغرب الأوسط(٦٣)، ومع رغبته في جعل ولاته من أقاربه إلاّ أن زعماء قبيلة أوربة الذين ناصروه كان لهم نفوذ كبير في رسم وتنفيذ سياسته مما جعل جهوده في تنظيم دولته غير واضح رغم بذله جهداً كبيراً في سياسته الداخلية على حساب توسعاته العسكرية، وبعد وفاته في ربيع الآخر سنة ١٧٧هـ/٧٩٣م وقبل سنة ١٧٥هـ/٧٩١م تولى الإمامة من بعده ابنه إدريس الثاني الذي قام بعدة أعمال على مختلف

الأصعدة، فمارس القضاء الذي كان فيه ملازماً للحق، جارياً على قانون الشريعة في الأحكام لا يعدل عن الحق ولا ينحرف عن السنة، فكان يأخذ الجزية[٦٤] وزكاة الأموال حسب ما نصت عليه الشريعة، وكانت الغنائم التي تأتيه يقوم بتقسيمها إلى أربعة أخماس على المجاهدين، ويصرف الخمس فيما تحتاجه مرافق الدولة، وانتشر صيته بين الناس فتقاطرت الوفود من مختلف المناطق المغربية لبيعته والعيش تحت كنفه، ثم ترك القضاء، وعيّن بدلاً منه القاضي عامر بن سعيد[٦٥] بن محمد القيسي الأندلسي الذي ترأس دار القضاء بمدينة وليلي، فكان يقضي بين الناس ويقوم بتطبيق الشرائع والأحكام فعده بعضهم مالكياً، وقيل إنه على مذهب سفيان الثوري، وقيل على مذهب الأوزاعي الذي كان معمولاً به في المغرب والأندلس قبل وصول مذهب مالك الذي حل محله، ويحتمل أن يكون عامر هذا مجتهداً مستقلاً لم يتقيد بمذهب[٦٦].

أما كاتبه، فكان أبا الحسن عبدالله بن مالك الخزرجي[٦٧] الأنصاري ووزيره عمير بن مصعب الأزدي[٦٨] الملقب بالملجوم لأنه كان موسوماً على أنفه لضربة أصيب بها في بعض الحروب على أنفه، وكان يُعدُ من فرسان العرب وسادتهم، وكان لأبيه دور بارز في حرب البربر بإفريقية والنصارى بالأندلس، وهو جد بني ملجوم الذين كان لهم بفاس فيما بعد شهرة عظيمة بالعلم والدين، وكان يساعد ملجوم في عمله وزير بربري اسمه بهلول بن عبدالواحد المطغري[٦٩] السابق الذكر والذي التجأ إلى الأمير إبراهيم بن الأغلب عندها استقل عمير بن مصعب بالوزارة وعمل معه وهو ممن استعان بهم الإمام إدريس الثاني في تسيير الأمور الدنيوية.

أما على الصعيد العسكري:

فقد قام الإمام إدريس الثاني بتقوية جيشه، واغداق الأموال على أتباعه من المشايخ والرؤساء، ومع هذا ظلت أجهزته العسكرية ابتدائية، تعتمد على الأسلاب والغنائم، وعلى الجزية والخراج.

واصطبغ الجيش الإدريسي بالصبغة القبلية، وكان لديه قوات خاصة تقوم بحمايته وبنشر الأمن في ربوع دولته من العرب الوافدين عليه من القيروان وقرطبة، كما وفدت عليه جماعة من الفرس ممن كانوا يقيمون في العراق[٧٠].

ويُعد قُرب فاس من نهر سبو من عوامل ازدهار المدينة، وهو صالح للملاحة، تسير فيه القوارب والسفن الصغيرة، وفي عهد الموحدين أوجدوا داراً لصناعة السفن في مكان يسمى بـ(الحبلات)[٧١] في أراضي بني عبوده بالقرب من النهر، كما استطاع الإمام إدريس الثاني أن يضمن لنفسه موانىء على المحيط الأطلسي وثغر سبته المطل على المضيق تمهيداً لدخوله إلى الأندلس، لكن كيف يدخل ولم يكن لديه أسطول ولماذا لم يكن عنده رغم توفر الإمكانات من مواد خام وأيدٍ عاملةٍ وغير ذلك؟ سؤال لم أجد له جواباً إلى الآن.

الحياة الثقافية:-

عملت الدولة على نشر اللغة العربية في المناطق الوسطى والجنوبية، وصاحب نزوح القبائل العربية عدد من العلماء ممن هضموا القيم الإسلامية في المشرق والأندلس، أمثال يحيى بن يحيى الليثي صاحب مذهب مالك وأحد رواة (الموطأ) وغيره من العلماء الأجلاء من أصحاب مذهب مالك واستوطن قسم منهم الإسكندرية والقسم الآخر رحل الى الإمام .

ويبدو أن العلاقات الثقافية بالمغرب والأندلس لم تتأثر بالخلافات السياسية، والدليل على ذلك ازدهار المذهب المالكي في فاس، بعد أن كانت قاعدته القيروان بعكس ما كانت عليه بين فاس ومناطق الاباضية والصفرية التي كانت مقطوعة تماماً[٧٢].

وينوّه جوتيه بفضل فاس الثقافي ويُعدُها مركز إشعاع علمي في المنطقة فيقول:- "أعظم عمل قام به الأدارسة، فهي ترمز بحق لمجدهم وعبقريتهم، وهذا العمل إذا نظرنا إليه من زاوية تركيز الحضارة الإسلامية في المغرب، يفوق كل ما قامت به دولة أخرى من قبل ومن بعد في المغرب..."[٧٣].

التجارة والصناعة:-

تتبوأ مدينة فاس مركزاً مرموقاً بين الجنوب والشمال والشرق والغرب حيث إنها تقع عند ملتقى أكبر طرق القوافل في المغرب كله:- الطرق الآتية من الجريد عبر تلمسان متجهة إلى المحيط الأطلسي، والطريق المتعرجة التي تخترق جبال الريف متجهة إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط وإلى الأندلس، وأخيراً الطرق التي تمر بمضايق سلسلة جبال الأطلس المتوسط، ومتجهة إلى سجلماسة ثم الصحراء الكبرى[٧٤].

وبعد أن تناولنا الحديث عن الجانب السياسي والحضاري للدولة، فإنه يمكننا القول بأن عهد الإمام إدريس الأول يُعد نواة التكوين للدولة، بينما يُعد عصر ابنه الإمام إدريس الثاني عصر بناء وتكوين، فقد كان من مخططات الدولة الإدريسية السيطرة على المشرق، ولكنها حوصرت من قبل العباسيين عن طريق الأغالبة في القيروان، والرستميين في المغرب الأوسط – الجزائر– إضافة إلى ضعف قواها العسكرية واعتمادها على القوات البرية المكونة من القبائل البربرية، وعدم تملكها الأسطول مع توفر إمكانات تكوينه، ووجود ثغور بحرية لها تقع على حوض البحر المتوسط والمحيط الأطلسي[٧٥].

رغم ذلك فإنها تُعد الخطوة الأولى في بناء الكيان السياسي والإجتماعي للمغرب الأقصى العربي المسلم، فقد ساعدت الدولة القبائل المغربية على اعتناق مبادىء الإسلام وتعلم اللغة العربية، وعَدّت الانتساب للعروبة شرفاً لها أمثال أوربة وغمارة ومكناسة وهواره، ولواته، وعملت الدولة على إسراع تعريبهم وتم لها ذلك، ونجحت في القضاء على انحرافات برغوطة، وبنت مدينة فاس التي كان لها دور إيجابي كبير في نشر اللغة والدين مثلما فعلت القيروان كخطوة أولى، حتى غدت اللبنة الأولى في بناء الصرح الحضاري المسلم الذي جعل المغرب الأقصى بلداً عربياً، وهي إلى اليوم تُعد من أبرز المنارات العلمية في المغرب الكبير، ومركزاً حضارياً امتاز بحفظ التراث الحضاري للشعبين المغربي والأندلسي[٧٦].

نتائج البحث

- لم تكن الدولة الإدريسية شيعية كما يُعدُها بعض المؤرخين وإنما كانت سنية المذهب، تتفق نظرتها مع أهل السنة، ولم تقم بدعاية لها قصد تكوينها مثلما فعلت الدولة الفاطمية قبل قيامها في المغرب.
- سميت هذه الدولة (بالدولة الأدريسية الهاشمية) تمييزاً لها عن غيرها من الدول التي كانت مجاورة لها في المغرب الكبير.
- حب المغاربة لآل البيت، كان له صداه في المناطق الإفريقية المجاورة للمغرب، والدليل على هذا الحب ايواء الإمام، إدريس في مصر، ومناصرته في المغرب الأقصى، واستقبال أهل تلمسان ومن حولهم له والدخول في طاعته عند فتحه للمدينة.

- وقوف الأغالبة سداً منيعاً أمام توسع الأدارسة وهذا يدخل في نطاق المصالح المتبادلة بين الأغالبة كأسرة، وبين الخلافة العباسية.

- التفاف أبناء إمارته حول سلطانه، بإفشال المؤامرة التي دبرت لقتل راشد (مولى الإمام إدريس الأول، ومربي الإمام إدريس الثاني) وتعيين أبي خالد يزيد بن الياس العبدي مكانه.

- إبراز رسالة الدولة المتمثلة في الجهد المبذول من الإمامين إدريس الأول وإدريس الثاني، في القضاء على الوثنية والمجوسية واليهودية والهرطقة الدينية المتمثلة بالصفرية، عكس علاقاتهم مع الرستميين التي إتسمت بحُسن الجوار.

- ضعف البنية العسكرية للدولة الإدريسية لاعتمادها على الجيش، دون الأسطول؛ كما هو الحال عند عدوتها التقليدية (الدولة الأغلبية) الأمر الذي دفعها لمهادنتها وخطب ودها بمختلف الوسائل منها، إرسال الرسائل لامرائها بتذكيرهم من قرابتهم للرسول صلّى الله عليه وسلّم مع إدراك الأغالبة لأهمية بقائهم الذي يُعد منفعة لهم واستمراراً لحكمهم، ودليل ذلك ما فعله الأمير زيادة الله مع الخليفة المأمون.

- إنهاء الود والأتفاق الذي كان معقوداً بين الإمام إدريس الثاني والخليفة الأموي هشام بن الحكم ضد الدولة العباسية، بسبب ايواء الإمام للمهاجرين الربضيين الذين نزلوا في مدينة فاس واتخذوا منها موضعاً لسكانهم سمي فيما بعد بـ(عدوة الأندلسيين) هروباً من الخليفة الحكم بن هشام، وتنبه الطرفين لبعضهما مما قضى على خواطر إبن إدريس في الاستيلاء على الأندلس.

- اصطبغت المؤسسة العسكرية للدولة الإسلامية بالصبغة القبلية مع تنوّع العناصر من فرس وعرب وبربر.

- باشر الإمام إدريس الثاني بمزاولة القضاء وجباية المال بنفسه، باعتبارهما أهم مؤسستين في الدولة.

- بنى إدريس الثاني مدينة فاس بعد اختياره موقعها، وجعل منها منارة علمية للمغرب وللدول المجاورة، وراجت الحركة الثقافية فيها وازدهرت بينها وبين قرطبة، بينما انقطعت مع الأباضية والصفرية، ويعود هذا للناحية المذهبية، كما عملت على نشر التعريب، وبالتزاوج بين العناصر العربية والعناصر البربرية الأمر الذي ساعد على بناء الصرح الحضاري

العربي المسلم، وجعل المغرب بلداً عربياً.

- تميزت عدوتي المدينة، عدوة القرويين بخصب العلوم، وعدوة الأندلسيين بالتقدم الصناعي والزراعي، وأصبحت المدينة برمتها مركزاً لحفظ التراث الحضاري للشعبين المغربي والأندلسي، وما زلنا إلى اليوم نشهد تقدماً علمياً ورواجاً صناعياً، خاصة في الصناعات التقليدية.

الهوامش:

(١) موضع فيه ماء على مسيرة ثلاثة أميال من مكة، راجع، الجزنائي- علي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، ت- عبدالوهاب بن منصور، ط- المطبعة الملكية، الرباط ١٣٦٧هـ/١٩٦٧م، ص١٤.

(٢) راشد بن منصة الأوربي، مولى الإمام إدريس الأول، اختلف في أصله، فقيل من العرب المولدين، وقيل حبشي، وقيل أنه بربري من قبيلة (اوربة) سُبي مع أبيه منصة في غزو موسى بن نصير ورجع معه إلى المشرق، وهو الذي قام بأمر الدولة بعد وفاة سيده، وكفل الإمام إدريس الثاني إلى أن شب وترعرع، وكان بطلاً شجاعاً وقائداً محنكاً، وسياسياً ماهراً، توفي سنة ١٨٦هـ/٨٠٢م ودفن بالقرب من ضريح الإمام إدريس بجبل زرهون في الجهة الجنوبية يمين الخارج للمزارة العليا من الجامع الكبير، عنه راجع، الجزنائي- علي، جنى زهرة الآس، ص١١ هامش١١ رقم (٣٠).

(٣) مدينة عتيقة واقعة في السفح الجنوبي لجبل زرهون، على بُعد ٢٨كم من شمالي مكناس ويظن المغاربة أنها من بناء القِبط حتى سموها قصر فرعون، والحقيقة أن مؤسسيها الأولين غير معروفين، ولكنها كانت غير معروفة قبل مجيء الرومان إلى المغرب، وكانت من عواصم الملك البربري جوبا الثاني (٢٥ق.م- ٢٣ أو ٢٤ق.م) ملك موريتانيا، وبعد الإحتلال الروماني (٤٠-٤٥ ب.م) أصبحت وليلي "valibalous " حاضرة من حواضر موريتانيا الطنجية، وكان يقيم بها الحاكم الروماني للاقليم، ثم بدأ شأنها يضعف في نهاية القرن الثالث الميلادي بعد وفاة الإمبراطور بروبوس (٢٧٦-٢٨١م) ولكنها لم تخل نهائياً، بل ظلت مسكونة من طرف بعض نصارى البربر إلى نهاية القرن الثامن الميلادي، وعُرفت في هذه الفترة باسم وليلي بكسر اللام أو فتحه، ثم انتعشت قليلاً عند دخول الإسلام واستقر الإمام إدريس الأول بها، ولكنها لم تلبث أن خلت وخربت بعد إنشاء إبنه الإمام إدريس الثاني مدينة فاس، وتبلغ مساحة وليلي أربعين هكتاراً، ويبلغ طول السور الذي كان يحيط بها (٢٣٥٠م) يتخلله نحو (٤٠) برجاً، وهي الآن من أهم المشاهد الأثرية بالمغرب، راجع، الجزنائي، ص١٢ه رقم (٣١).

(٤) ورد اسمه في جنى زهرة الآس بإسم سليمان بن جرير البجلي، راجع، الجزنائي، جنى زهرة الآس، ص١٤ هامش٣٧، وورد اسمه عند إبن الآبار، باسم (سليمان بن جرير الرقي)، راجع، إبن الآبار أبو عبدالله محمد بن أبي بكر القضاعي، الحلة السيراء، ت-حسين مؤنس، ط- الشركة العربية للطباعة والنشر- القاهرة، ط(١) ١٩٦٣م، جـ ١، ص٥٣، وورد اسمه عند البكري باسم (سليمان بن حريز الجزري) ويرى أنه من قبيلة ربيعة، كان متكلماً ممن يرى رأي الزيدية وكان حلواً شجاعاً أحد شياطين

الانس، وكانت له إمامة الزيدية اذ كان متكلمهم وهو الذي جمع الرشيد بينه وبين هشام بن الحكم حين ناظره في الإمامة، فارغبه يحيى بن خالد البرمكي في مال ووعده عن نفسه وعن الخليفة بمواعد عظيمة، ودعاه إلى قتل إدريس والتلطف في ذلك، "فأجابه وأعطاه مالاً كثيراً وبعث معه رجلاً يثق به ...الخ". عنه، راجع، البكري- أبو عبيدالله، المغرب في ذكر بلاد إفريقية ،المغرب ط- المثنى، بغداد، ١٨٥٧م، ص١٢٠.

(٥) راجع، إبن أبي زرع - علي الفـاسي؛ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبـار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط- دار المنصور - الرباط، ١٩٧٦م ص١٩.

(٦) وعن ولاية، يزيد بن حاتم، وهشام بن عبدالملك راجع، إبن الأبار، الحلة السيراء، جـ١ ،ص٧٢-٧٦، ص٤٢.

(٧) إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص١٦.

(٨) تُسمى باللسان البربري بو ليلني وليلني وتعني طنجة، راجع، البكري، ص١١٨.

(٩) البكري، ص١١٨.

(١٠) جمع عبدالحميد الأوربي إخوانه وقبائل اوربة، وعرّفهم بنسبه وقرابته من رسول الله، فقالوا له:-
" الحمد لله الذي أتانا به وشرفنا بجواره، فهو سيدنا ونحن عبيده، نموت بين يديه، فما تريد منا؟ قال: تبايعونه. قالوا: سمعاً وطاعة ...الخ" إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص٢٠.

(١١) إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص٢١.

(١٢) جوليان - اندري، تاريخ إفريقية الشمالية، تعريب - محمد مزالي، والبشير سلامه، ط(٢) الدار التونسية للنشر ١٩٨٣، جـ٢، ص٥٥.

(١٣) إبن عـذاري- المراكـشي، البيـان المغرب في أخبـار الأندلس والمغرب ت.كـولان، بروفنسـال، دار الثقافة-بيروت-د-ت، جـ١ ،ص٨٣.

(١٤) يسميه الحميري بإدريس بن إدريس الفاطمي، راجع، الحميري- محمد بن عبدالمنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، ت- إحسان- عباس، مكتبة لبنان- بيروت، ١٩٧٥م، ص٤٣٤.

(١٥) البسيط من وادي أبو الرقراق إلى وادي أم الربيع، وهو بسيط الشاوية وما جاوره، وقد زال هذا الإسم الآن، وبقيت بعض الأسر المغربية منسوبة إليه، راجع، الجزنائي، جنى زهرة الآس، ص١٢ هـامـش رقم(٣٣).

(١٦) اسم حاضرة مغربية عتيقة تقع على نهر أبي الرقراق غير بعيدة من مصبه في المحيط الأطلسي حيث المدينتان التاريخيتان: سلا، سلا-كولونيا، وكانت غاية ما انتهى إليه نفوذهم في أرض المغرب، واستمرت

شاله مستعمرة رومانية مدة تقرب من خمسمائة عام إلى أن ضعف أمر الرومان فتدهورت وخربت، ويقال أن الونداليين هم الذين خربوها أثناء عبورهم إلى المغرب، ولما فتح عقبة بن نافع المغرب بعد سنة ٦٢هـ/٦٨١م أسلم أهلها على يديه، ثم ارتدوا بعد قتله في تهودة إلى أن أسلموا مرة ثانية على يد موسى بن نصير، ثم إفتتحها الإمام إدريس وتداول ملكها بنوه من بعده إلى أن انتزعها منهم موسى بن العافية سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م وفي أواخر القرن الرابع الهجري صارت عاصمة اليفرنيين، وخلال الحروب التي جرت بين برغواطة والمرابطين خربت شاله، وفي هذا التاريخ زارها الجغرافيّ المغربيّ الشهير الشريف الإدريسي ووصفها بأنها خراب، ولما أسس الموحدون الرباط إزداد خرابها إذ انتقل إليها سكان شاله وحرفيوها، وقد حاول المرينيون بعدهم تجديد أبنيتها فأحاطوها بأسوار وبنوا فيها مدارس ومساجد واتخذوها مدناً لملوكهم وأعيانهم، ولكن ذلك لم يُعِد إليها الحياة، وقد ابتدأ العمل في بداية هذا القرن في رفع انقاضها وترميم آثارها. راجع، الجزنائي، ص١٣، هامش رقم(٣٤).

(١٧) اسم إقليم شهير بوسط المغرب، قاعدته قصبة تادلة الواقعة على نهر أم الربيع جنوبي خنيفرة، وشمال بني ملال، لعب دوراً كبيراً في تاريخ المغرب، فيه كانت تمر الطريق التي تربط فاس بمراكش عبر جبال الأطلس المتوسط يُنسب إليه كثير من العلماء والصلحاء والقادة، وتُكتب تادله، تارة بالتاء، وأخرى بالألف المقصورة تادلا، لذلك المنسوب إليها يُسمى تادلي أو تادلوي، راجع، الجزنائي، ص١٣ هامش رقم(٣٥).

(١٨) الجزنائي، ص١٣، إبن عذاري، البيان، جـ١، ص٨٣.

(١٩) البكري، ص١١٨، إبن عذاري، ص٨٣.

(٢٠) الجزنائي، ص١٤، إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص٢١.

(٢١) قبيلة شهيرة من بربر البرانس، كانت في القديم تشتمل على بطون وعمائر كثيرة مثل بجاية، ونفاسة، نفحة، وزهكوجة، ومزياتة، ورغيوة، ودقيوسة، وقد عظمت هذه البطون فيما بعد حتى أصبحت تُعد قبائل مستقلة، وكان أمير هذه القبيلة عند دخول الإسلام أرض المغرب شخص يدعى سكرديد بن زوغي وليّ عليهم مدة ثلاث وسبعين سنة وأردك لفتح الإسلامي، ومات سنة ٧١هـ/-٦٩٠م وقد بقيت زعامة البربر في هذه القبيلة حتى دخل إدريس الأول المغرب فتنازل له الأمير إسحق بن محمد بن عبدالحميد الأوربي عن الإمارة، واندمجت أوربة في عداد القبائل البربرية لا تتميّز عن سائرها بشيء، ولا تزال فرقة من قبيلة البرانس المغربية تحمل اسم وَربة إلى الآن، واسم وربة معرّب من اسم اوربة البربري وهو بفتح الهمزة والواو وسكون الراء. راجع، الجزنائي، ص١٦ هامش(٤٢).

(٢٢) جاء على النقش " بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أمر به إدريس بن عبدالله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومئة" راجع، إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص٢١.

(٢٣) إسماعيل – محمود، الأدارسة، القاهرة، ط(١) ١٤١١ه/١٩٩١م، ص١٢٩.

(٢٤) حماده – محمد ماهر، الوثائق السياسية والأندلسية في الأندلس وشمال إفريقية، منشورات مؤسسة الرسالة – بيروت، ط(١) ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ص١٣٦.

(٢٥) إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٢٠-٢١.

(٢٦) نفسه، ص ٢١-٢٢، البكري، ص ١١٩-١٢٠، الجزنائي، ص١٤.

(٢٧) الواقع أن قبر الإمام إدريس الأول لا يوجد في وليلي، وإنما في زاوية تبعد عنها خمسة كيلو مترات، وفي علمنا أن ما ذكره إبن زرع أصح مما ذكره الجزنائي لإنه متقدم عليه، فإبن زرع يرى أنه دفن بقربها، راجع، الجزنائي، ص١٤، إبن زرع، روض القرطاس، ص٢٤.

(٢٨) إبن الآبار، الحلة السيراء، جـ١، ص٥٣، البكري، ص١٢٣.

(٢٩) الجزنائي، ص١٥.

(٣٠) نفسه، ص١٥-١٦.

(٣١) ابن عذاري، البيان، جـ١، ص٢١٠، البكري، ص١٢٢.

(٣٢) نفســه، ص١٢٣، إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص٢٦، إن عـدي، البيـان، ج١، ص٢١١، إبن زرع، روض القرطاس، ص٥٠.

(٣٣) ما كُتب على المنبر هو:- "هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس بن عبدالله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في شهر محرم سنة تسع وتسعين ومئة". راجع، إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص٥، الجزنائي، ص٢٧.

(٣٤) إبن أبي زرع، ص٥٠.

(٣٥) السلاوي – أحمد، الإستقصاء لاخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء – المغرب ١٩٥٤، جـ١، ص١٥٥، وما زالت المدينتان قائمتين إلى الآن – مشاهدات الباحث.

(٣٦) إبن الآبار، الحلة السيراء، جـ١، ص٥٣، البكري، ص١٢٢، إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص٢٨.

(٣٧) البكري، ص١٢٢.

(٣٨) إبن خلدون - عبدالرحمن، تاريخه، المجلد الرابع، القسم الأول، ط-دار الكتاب- بيروت ١٩٨١، ص٤٧.

(٣٩) إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص٢٧، إبن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ت- احمد مختارالعبادي، محمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء ١٩٦٤، ص١٦٧.

(٤٠) إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص٢٧، إبن الآبار، الحلة السيراء، جـ١، ص٥٥.

(٤١) نفسه، ج١، ص٥٥.

(٤٢) يبدو أن الأمير الحكم بن هشام (١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢٢م) أراد أن يتقرب من الإمام إدريس الثاني ليضع خطة مشتركة في تقليص نفوذ الأغالبة وتحديد نشاطهم، مستغلاً العداء المشترك من قبلهما للامويين. وقد نجح في بداية الأمر، ولكن ساءت العلاقات فيما بعد عندما استقبل الإمام وادريس الثاني المنفيين الربضيين وانزلهم بجواره، فاستبدلت المحبة بالعداوة، راجع، إبن تاويت، دولة الرستميين أصحاب تاهرت، ط مدريد ١٩٦٥،ص١٦، ابن الآبار - ابو عبدالله محمد، الحلة السيراء، نشر - موللر- فرانز، ط١٨٠٦، ص٢٥٤.

(٤٣) توفي سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م وهو إبن ثمانٍ وثلاثين سنة وثمانية أشهر حسب قول الجزنائي في كتابه جنى زهرة الآس، ص٢٨، ويرى إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص٥٠، وإبن الآبار يذكر موته سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م راجع، الحلة السيراء، ج١، ص٥٣ والبكري، يذكر أن موته سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م، راجع، البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص١٢٣.

(٤٤) شعب عربي عظيم ينتسب إلى قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وتتشعب القيسية إلى ثلاثة بطون كبيرة: كعب، عمرو، سعد، وغلب إسم القيسية على القبائل العدنانية حتى جعل في مقابل القحطانية التي تنضوي تحتها قبائل اليمن قاطبة. وفي المغرب أسر عربية كثيرة تنتمي إلى القيسية، منهم أسر تحمل إسم (القيسي). راجع، الجزنائي، ص١٧ هامش رقم (٤٥).

(٤٥) من أعظم قبائل العرب وأشهرها تنتسب إلى الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن كهلان، من العرب القحطانية، وهم ينقسمون إلى أربعة أقسام: أزد شنوءة، وأزد غسان، وأزد السراة، وأزد عمان. راجع، الجزنائي، ص١٧ هامش رقم(٤٦).

(٤٦) الخزرج بطن من الأزد من القحطانية، كانوا يقطنون يثرب مع الأوس عند مبعث الرسول عليه السلام.

(٤٧) يحصب بن دهمان بطن من عامر بن حمير، الجزنائي، ص١٨ هامش رقم(٤٨).

(٤٨) قبيلة عربية من ولد الصدف بن أسلم بن زيد بن مالك بن زيد بن حضرموت الأكبر، دخلت بطونهم الأولى

إلى المغرب في عهد الإمام إدريس الثاني، ودخلت بطون أخرى إلى الأندلس أثناء سنوات الفتح، ولا تزال أسرة (الصدفي) موجودة بفاس إلى اليوم. الجزنائي، ص١٨ هامش رقم(٤٩).

(٤٩) الجزنائي، ص١٨-٢٦، البكري، ص١١٥-١٣٤، عبدالواحد- المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ١٩٨٧، ص٥٠٤،م،م، الاستبصار في عجائب الأمصار، ت- سعد زغلول عبدالحميد، دار النشر الثقافية- بغداد، دار النشر المغربية - الدار البيضاء، د-ت، ص١٨٠ وما بعدها، إبن حوقل، أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض، منشورات مكتبة الحياة- بيروت- ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص٢٣٠-٢٣١، الأدريسي، نزهة المشتاق، ط- ليدن، بريل، ١٩٦٨، ص٧٥-٧٦، إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص٣٠ وما بعدها.

(٥٠) الجزا، وينطق المغربة جيمه جيماً بدوية هو أداء يؤديه المرء جزاء بنائه على أرض لا يملكها، وفي فاس حومات كاملة كان الناس يؤدون الجزاء عن الدور والحوانيت والمصانع التي بنوها فيها مثل جزاء إبن عامر، وجزاء إبن برقوقة (كزان برقوقة) وجزاء إبن زكون. راجع، الجزنائي، ص٢٦، رقم (٦٥).

(٥١) هو البسيط الممتد بين فاس ومكناس فاصلاً سلسلة جبال الأطلس المتوسط عن سلسلة الأطلس الساحلي، تسكنه قبائل عربية قحة مثل حميان والمهايا والشجع واولاد سيدي الشيخ وأخرى بربرية مستعربة مثل آيت عياش وبني مطير وكروان، وهو معروف بهذا الإسم إلى الآن، وارضه من أخصب أراضي المغرب واجودها، راجع، الجزنائي، ص١٨ رقم (٥٢).

(٥٢) الجزنائي، ص٢٦.

(٥٣) نفسه صفحة ٢٦.

(٥٤) إحدى قبائل البربر البرانس، واعظم قبائلهم بالمغرب على الإطلاق، اذ لا تكاد ناحية من نواحيه تخلو من بطن من بطونهم، وأكثر النسا بين البربر يجعلونهم من العرب الحميريين، وقد تفرعت عن القبيلة الأصلية فروع كثيرة نمت بمرور الزمان وارتقت كل واحدة منها إلى درجة قبيلة ذات اسم خاص بها. أما القبائل التي بقيت تحمل الاسم الأصلي فهي مستقرة اليوم في شمال المغرب، وهي منقسمة إلى ثلاث قبائل كبيرة:

أ- صنهاجة مصباح المشتملة على عمارتين كبيرتين، صنهاجة الظل، وصنهاجة الشمس، وهي تابعة لقيادة ثلاثاء بني وليد.

ب- صنهاجة عذو، وهي تابعة لقيادة كاف الغار بإقليم تازة، ت- صنهاجة السراير بشير- بني بوشيبة، وتقع

بإقليم الحسيمة، وتشتمل كل واحدة من القبائل والعمائر على عدد كبير من البطون والقرى. راجع، الجزنائي، جنى زهرة الآس، ص١٧ هامش رقم(٤٣).

(٥٥) البكري، المغرب ... ص١١٥، ١١٦، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٤٥، ٤٨، الحموي، معجم البلدان، ٢٣٠-٢٣١، عبدالواحد- المراكشي، المعجب، ص٥٠٤، الجزنائي، جنى زهرة الأس، ص٢٤ وما بعدها.

(٥٦) الإستبصار، ص١٨١، يورد الجزنائي ذكر عدد من الحمامات، مثل حمة وشتاتة، وهي الحمة التي تعرف بسيدي حرازم تقع على بُعد(١٥كم) إلى الجنوب الشرقي منها؛ تنبع فيها مياه غنية بالغاز الكاربوني تبلغ درجة حرارتها ٤٥ درجة، وقد شرعت الدولة المغربية في السنين الأخيرة في تجهيزها وتزويدها بالمرافق العصرية التي تجعل إقامة المستحمين فيها مريحة، الجزنائي، جنى زهرة الآس، ص٣٦ هامش رقم(٨٥). وهناك حمة أخرى حمة أبي يعقوب، وتقع خلف جبل زالغ غير بعيدة عن باب وشتاتة، ومياهها دافئة غنية بمادة الكبريت، ولكنها ضعيفة، لذلك قصر النفع على السكان المجاورين لها والمارين بها، الجزنائي، ص٣٦ هامش رقم(٨٦)، ويجري في فاس نهر يسمى بنهر الجوهر ولعله سمي بذلك لإنه يستخرج منه صدف يقوم مقام الجوهر لنفاسته، وماؤه يصلح لتفتيت الحصى خاصة حصى المثانة، ويلين البشرة ويسهل الهضم. راجع، إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص٣٥، الجزنائي، جنى زهرة الآس، ص٣٥.

(٥٧) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ١، ص٤٤.

(٥٨) المصدر نفسه والصفحة نفسها، عبدالواحد المراكشي، المعجب، ص٣٣-٣٦، إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص٤٧، العبادي-أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس، ط(٢) القاهرة ١٩٨٦م ص١٢٨.

(٥٩) المرجع نفسه والصفحة نفسها، تورنو- روجي، فاس قبل الحماية، تعريب، محمد حجي، دار الغرب الإسلامي- لبنان، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص٧٦، اسماعيل- محمود، الأدارسة، ص٦٢.

(٦٠) إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص٣١، عبدالواحد المراكشي، المعجب، ص٥٠٤.

(٦١) يبدو أنه أحسّ بالخطر والخطأ معاً، لإن نكبة الربضيين كان لها تأثير كبير في نفسه، فلم يذق حلاوة العيش بعدها، واعتلت صحته، احتجب في آخر عمره عن الناس، فمات على توبة من ذنوبه وندم على ما اقترف. من شعره يعذر به نفسه بالدفا ع عن ملكه وحماية سلطانه قال:- رأيت صدوع الأرض بالسيف راقعاً وقدماً لامت الشعب مذ كنت يافعاً. راجع، ربن الآبار، الحلة السيراء، جـ١، ص٤٦-٤٧.

L. Provencal:La Fondation de Fes(I, Islamd, occident) Paris, 1948, T: 1. Gautie (F) La passe de L, Afrique denord, paris, 1914.

(٦٢) الحموي، معجم البلدان، ص٢٣٠-٢٣١، البكري، المغرب ... ص١١٦، الإستبصار، ص١٨١، إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص٤٣.

(٦٣) كان إخوانه ستة، محمد، ابراهيم، إدريس، عيسى، يحيى، سليمان، وقدموا إلى المغرب وكان سليمان حاكم تلمسان راجع، البكري، المغرب، ص١٢٢.

(٦٤) إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص٤٦.

(٦٥) نفسه، ص٢٩.

(٦٦) من أقطاب المذهب المالكي في المغرب، إبن زياد، وبهلول، وإبن راشد، وأسد بن الفرات الذي أتى بعدهم، أما الأندلس فكان من أبرز علماء المالكية فيها، زياد بن عبدالرحمن، وقرعوس بن العباس، راجع، الجزنائي، جنى زهرة الآس، ص٢٠.

(٦٧) يورد إبن أبي زرع عنه خبراً مفاده، بأنه هو الذي كتب عقد شراء الأرض من بني يرغتن ومقداره ألفا درهم، وهذه الأرض هي المكان الذي أقيم عليه عدوة الأندلسيين. راجع، روض القرطاس، ص٣٢.

(٦٨) إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص٢٩، سعد زغلول، تاريخ المغرب، جـ٢، ص٤٤٢.

(٦٩) كان تعيينه يدخل في نطاق سياسة الترضية، لإنه نكّل بالصفرية تنكيلاً شديداً.

(٧٠) يقول إبن أبي زرع عن تنّوع أمكنة الوافدين:- "وقصد إليه الناس من كل صقع..." ولعّل كثرة الأضطرابات في إفريقية والأندلس، وهروب المشارقة إلى المغرب كملجأ أمين لهم ساعد على ذلك. راجع، سعد زغلول، تاريخ المغرب، جـ٢، ص٤٤٢.

(٧١) الجزنائي، جنى زهرة الآس، ص٣٧.

(٧٢) يبدو أن قطع العلاقات الثقافية بينهما يعود إلى الاختلاف في منهجية المذهب عند كل منهما.

(٧٣) Gautie (F) lapasse de. Afriquedenord, paris, 1944, p. 292-293.

(٧٤) وُجِد إلى جانب التجارة الخارجية، تجارة داخلية تمثلت في إستيراد خشب الأرز المجلوب لها من جبال بني يازعة، وبيع السراطين الموجودة في نهر الجوهر والتي تستخدم كأدوية، وصيد وتسويق أنواع السمك المختلفة مثل البوري والبوقة والسلباح ذات الطعم اللذيذ، وعُرف عن نهر سبو بوجود الحوت المعروف (بالقرب) والذي يبلغ وزنه قنطاراً، وما زال هذا السمك إلى اليوم يُعرف بهذا الاسم، يكبر حجمه ويصغر حسب فصول السنة والأوقات التي يتوالد فيها، وهو من الأسماك اللذيذة، كما وُجِدت في فاس مصانع الصابون وأحجار الملح التي كان يتم تصديرها إلى الخارج، راجع الجزنائي، جنى زهرة الآس، ص٣٥،

ص٣٩، إبن أبي زرع، ص٤٨.

(٧٥) العربي- اسماعيل، دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقُرطُبة، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ١١٣.

(٧٦) مؤنس- حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة ط١، ١٩٨٠م، ص١١٧.

المصادر والمراجع

١ - الإدريسي، نزهة المشتاق، ط- ليدن، بريل ١٩٦٨م.

٢ - إبن الابار، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر القضاعي، الحلة السيراء جـ١، ت حسين مؤنس، ط- الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة،ط(١) ١٩٦٣م نشر- مولر- فرانز، ط ١٨٠٦م.

٣- إسماعيل العربي، الأدارسة، القاهرة، ط(١) ١٤١١هـ/١٩٩١م.

٤- البكري أبو عبيدالله، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ط - المثنى، بغداد، ١٨٥٧م.

٥- تورنو- روجي، فاس قبل الحماية، تعريب- محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م

٦- الجزنائي- علي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، ت- عبدالوهاب بن منصور، - المطبعة الملكية، الرباط، ١٣٦٧هـ/١٩٦٧م.

٧ - جوليان - اندري، تاريخ إفريقية الشمالية جـ٢، تعريب- محمد مزالي، والبشيرسلامة، ط(٢) الدار التونسية ١٩٨٣م.

٨ - الحميري- محمد بن عبدالمنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، ت- إحسان- عباس، مكتبة لبنان- بيروت-١٩٧٥م.

٩ - الحموي، شهاب الدين إبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي البغدادي، معجم البلدان جـ٢، ط- دار إحياء التراث العربي- بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

١٠ - إبن حوقل، أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض، منشورات مكتبة الحياة- بيروت، ١٩٧٩م.

١١- حمادة - محمد ماهر، الوثائق السياسية والأدارية في الأندلس وشمال إفريقية، منشورات مؤسسة الرسالة بيروت، ط(١) ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

١٢- إبن خلدون - عبدالرحمن بن محمد، تاريخ إبن خلدون، المجلد الرابع، القسم الأول، ط- دار الكتاب- بيروت، ١٩٨١م.

١٣- إبن الخطيب، لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد بن علي بن احمد السلماني أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ت- أحمد مختار العبادي، محمد إبراهيم الكتاني،

الدار البيضاء، ١٩٦٤م.

١٤ - السلاوي- احمد بن خالد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى جـ١، ت- احمد الناصري، محمد الناصري، الدار البيضاء المغرب ١٩٥٤م.

١٥ - إبن أبي زرع - علي الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط-دار المنصور، الرباط، ١٩٧٦م.

١٦ - إبن عذاري المراكشي، البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب جـ١، ت- كولان، بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، د-ت .

١٧ - عبدالواحد- المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ت- محمد سعيد العريان- محمد العربي العلمي، ط-٧- الدار البيضاء المغرب، ١٩٨٧م.

١٨ - العبادي- احمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس، ط(٢) القاهرة ١٩٨٦م.

١٩ - م.م، الاستبصار في عجائب الأمصار، ت- سعد زغلول عبدالحميد ، دار النشر الثقافية- بغداد، دار النشر المغربية- الدار البيضاء، د-ت.

٢٠ - مؤنس- حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة، ط(١) ١٩٨٠م.

المراجع الأجنبية

L. Provencal: La Fondation de Fes (I,Islamd, occidnet) Paris. 1948 T: 1.

Gautie (F) La Passe de L, Afrique denord, Paris, 1914.